



مُشَتَّدِيَّاتْ وَرَدْ لِلْمُتَهَوِّنْ
ward2u.com

تضُمُّ مدينتَة حماة عدداً كبيراً من المساجد القديمة التي يرقى عهُد بعضها إلَى أكثر من ألف عام بل إن واحداً منها وهو الجامع الأعلى الكبير وسمى بالكبير لكبر مساحته، حيث يمتد على طول حي المدينة جنوبي غرب قلعة "حَمَّة".
ويعتبر خامس مسجد في الإسلام بعد مسجد قباء والأقصى والحرمين الشريفين ويضم ضريحي أميرين حكماً حماة في القرن الثالث عشر وهما (المنصور) و(المظفر) والضريحان مصنوعان من خشب الأبنوس المرصع بالعاج.

بصمات ثلاث حضارات:

يقع الجامع الأعلى الكبير في حي المدينة ويعتبر أعظم آبادة عمرانية باقية في مدينة حماة.
بدأ هذا الجامع معبداً ثم أضحت كنيسة كبرى ثم أُمسى جامعاً وهذا ما يبرز في معالمه التي تحمل بصمات ثلاث حضارات كبيرة وهي الرومانية والبيزنطية والعربية الإسلامية.
ويعود تأسيس هذا الجامع إلى عام 17 هجري عندما فتح أبو عبيدة بن الجراح حماة صلحاً، وُعرف بالجامع الأعلى الكبير لأنَّه كان أعلى من الأرض ويصعد إليه المصليون على الدرج وكانت تتبعه في العهد الأيوبى دار(الملك المظفر) ومدرسة السيدة (خاتون) زوجته.

من أهم معالم المسجد الأعلى الكبير:

- المئذنة الجنوبية: وهي مربعة الشكل وتحوي كتابات عربية بالخط الكوفي، وتحمي بشكلها الرائع رغم أنه لم يبق إلا نصفها.
- المئذنة الشمالية: وهي مثمنة الشكل وتقوم بصدر الرواق الشمالي، بنيت في العهد المملوكي عام 1427 م (انظر الصورة)

- المنبر الخشبي المزخرف: تم بناؤه من قبل زين الدين كتبغا سنة 701 هجري، وهو آية في الروعة والجمال من حيث حفره ونقشه وتطعيمه بالصدف الدقيق الناصع المجزأ إلى أشكال هندسية دقيقة.
- ضريح الملكين الأيوبيين: المنصور وابنه المظفر وتابوتهم الخشبيين.
- قبة الخزنة: التي تنتصب في صحن الجامع على ثمانية أعمدة وتحتها بركة صغيرة وتم تشييدها بناءً على أوامر الخليفة عمر بن الخطاب حفاظاً على أموال المسلمين.

وصف المسجد:

وقد وصفه الباحث التاريخي "كامل شحادة": «إنه آيدة عمرانية كبرى في "حماه" .. وهو مجموعة بناء معقدة تاريخية وجليلة، التقت في رحابه غير حضارة أصلية، تقدم مدلولات فنية عظيمة ناتجة دون ريب عما تتعاقب من تغييرات في التأليف، وقد أصبحت جديرة بالبحث والدراسة...»، جاء هذا الوصف في الدراسة التي أعدها عن الجامع والتي أعادت طباعتها لجنة الجامع بإشراف مديرية أوقاف "حماة".

يقول الباحث "عبد الرزاق زقزوق" عن الجامع في كتبه "دليل حماة السياحي": «كان في الأصل معبداً رومانياً للإله "جوبيرت"، حوله البيزنطيون إلى كنيسة بعد اعتناقه المسيحية، وحوله "أبو عبيدة بن الجراح" عند فتح "حماة" إلى جامع، وزاد عليه الخليفة العباسي "المهدي" وحنته، كما حسته "الملك المظفر الأيوبي"، وبنى بجواره مدرسة».

يقول الباحث "راشد الكيلاني" في الصفحة 80/ من كتابه "تاريخ حماة": «في عام 1301/ ميلادية الموافق لسنة 700/ هجرية، زين نائب السلطنة في حماة "زين الدين كتبغا" الجامع بمنبر من الخشب الثمين، وهو آية في جمال الحفر والنقش». وفي عام 1420/ ميلادي أنشأ "إبراهيم الهاشمي" منارة الشمالية، كما هو مسجل على بابها، كما بني الحرم الصغير من جهة الشرق والرواق.

وفي الجانب الغربي من الحرم الكبير يوجد ضريح ملكي "حماة" المنصور الثاني محمد وابنه "المظفر الثالث محمود"، وكان لهذا الجامع منارة مقطوعة الرأس بابها من الحجر. ويضيف "الكيلاني": «وقد تهدم الجامع بأكمله في حادث عام 1982/، وتحطم بتهدمه منبر "كتبغا" وتابوت الملكين الأثريين غير أنه قد أعيد بناء هذا الجامع عام 1990/ م كما كان في الماضي .

يرى الزائر مداخل المعبد القديم الثلاثة تزييناً الزخارف النباتية الرائعة والهندسية الدقيقة التي تغلب عليها أوراق اللبلاب والكنكر وسوهاهما فضلاً عن المحاريب التزيينية الكبيرة التي انتظمت بين المداخل وازدانت بخشب زخرفي نافر وبديع كما يقول الباحث الآثاري "عبد الرزاق زقزوق".

ويبدو التأثير البيزنطي واضحاً في الواجهة الغربية للجامع وفي الأعمدة وتيجانها المستعملة في قبة الخزنة وغيرها حيث يسمو فن البناء البيزنطي وجماله الرشيق بتناسق المداخل الثلاثة فيها ذات السقوف المنحنية والمشكاة الصغيرة المزخرفة من فوقها وذلك بعد تحويل البناء من معبد إلى كنيسة كبرى.

يتجلى التأثير العربي في الكثير من أقسام الجامع الأعلى الذي تحول من كنيسة إلى جامع صلحاً كما ذكرنا إبان الفتح الإسلامي على يد أبي عبيدة سنة 15هـ - 636م باتفاق عدد من الروايات.

في الجانب الشرقي يرى الزائر مئذنة مربعة من العهد الأتابكي وهي تحتوي على كتابات عربية بالخط الكوفي أبرزها اللوحة الشرقية الجميلة.

وفي صحن الجامع تنتصب قبة الخزنة على ثمانية أعمدة أسطوانية من الحجر الكلاسي تحمل تيجاناً كورنثية غنية جداً

بزخارفها وتتوسط على الأعمدة مرسومات وأوامر سلطانية مختلفة الغايات والتاريخ وهي تذكرنا بخزنة الجامع الأموي في دمشق التي كانت تمثل بيت مال المسلمين في العصور الإسلامية الأولى.

وفي داخل الحرم ينتصب منبر خشبي مصنوع من قبل زين الدين كتبغا في سنة 701 هـ - 1301 م وهو آية في الروعة والجمال من حيث حفته ونقوشه وتطعيمه بالصدف الدقيق الناصع المجزأ إلى أشكال هندسية دقيقة للغاية.

وتحتاج كتابات في الجامع الكبير بـ"حماة" وأقدمها الكتابة اليونانية المنقوشة حفراً على حجر مرمي كبير في دعامة الحرم الغربية من الشمال، والكتابية الثانية تبدو على قوس من حجر بازلي تتوسط النافذة الجنوبية بأعلى الوجهة الغربية من الحرم، وعلى مرتفع من قاعدة المئذنة الجنوبية كتابتان إحداهما بوجهها الشرقية والأخرى بوجهها الجنوبية، والكتابات الرابعة في منبر الحرم فوق مدخله وجانبه، وكتابات الرواق الشرقي في الحرم السعدي وهي ثمانية كتابات وكتابات أعمدة قبة الخزنة وهي ثمانية أيضاً.

ثم تمت عملية إزالة الرسوم الجدارية التي تتعارض مع الدين الإسلامي وطلبت الجدران بطلاء عادي.

أقسام الجامع:

قسم الباحث التاريخي "كامل شحادة" الجامع إلى عدة أقسام على النحو التالي:

1- قبة الخزنة: حيث اعتبرت الجزء الأقدم، وبناؤها يكاد يكون نادر الوجود باستثناء مدن ثلاثة هي: "القدس" و"دمشق" و"حماة".

2- المئذنة الجنوبية: وهي مربعة قائمة في الزاوية الجنوبية الشرقية من بناء الجامع، وتعتبر المآذن بحد ذاتها عناصر معمارية إسلامية هامة جديرة بالدراسة والاهتمام لاحتواها على زخارف وصناعات كثيرة وما تتضمنه من نقوش وتنميقات جميلة فضلاً عن كونها سجلاً رائعاً لجميع الأحوال التي مر بها الفن الإسلامي منذ وقت مبكر وحتى وقتنا.

3- الحرم: وهو الشطر الجنوبي من الجامع، أبعاده (31.45/20.9) م يتألف من ثلاث بلاطات وجدرانه الجنوبي والشرقي والغربي أصلية، كما كانت في المعبد والكاتدرائية.

4- منبر الجامع: يقوم بلصق المحراب بالحرم وهو بحق آية أثرية هامة، صنع من الخشب الطيب الساج، يرتفع نحو 6م، وامتداده 4.38م/ في الأرض، وعرضه 112 سم/ يصعد إليه بـ14 درجة إلى مجلس الخطيب ومن تحت المجلس بوابة كبيرة تصل فراغ الجانبين وهو يتتألف من ثلاثة أقسام: المدخل، الجانبان، والكسوة الداخلية. وهو مصنوع من قبل زين الدين كتبغا في سنة 701 هجري وهو آية في الروعة والجمال من حيث حفته ونقوشه وتطعيمه بالصدف الدقيق الناصع المجزأ إلى أشكال هندسية دقيقة .

5- سدة الحرم: وهي تقوم داخل الباب الوسطي مباشرةً على أربعة أعمدة مستديرة رخامية طول الواحد 350 سم، وقطره 50 سم/.

6- أرض الحرم: رصفت ببلاط بازلي وقليل من الحجر الكلاسي. وهنا بعد أن ذكر الباحث أقسام الحرم في منبره ومحرابه وأركانه وقبابه وسدته وأبوابه تعرض قليلاً إلى المراحل الزمنية التي تمت بها تلك الأقسام.

7- أروقة الجامع: وهي ثلاثة مبنية من حجر كلاسي وبازلي تطل على الباحة وهي: الرواق الغربي والشمالي والغربي.

8- المئذنة الشمالية: تقوم بصدر الرواق الشمالي وتتقدم عنه للأمام بـ50 سم/ كما أنها تتأخر خلفه للشمال وغالبية بنائها من حجر كلاسي منحوت متوسط الحجم.

9- صحن الجامع: وهو يتتألف من ثلاثة أقسام، قسمان مصليان صيفيان أحدهما أمام الحرم ذو محرابين والآخر أمام الرواق الشمالي وله محراب.

تهدم بناء الجامع:

وقد تهدم الجامع بأكمله في حوادث حماه عام 1982 م . وتحطم بتهدمه منبر كتبغا وتابوت الملكين الأثريين غير أنه قد أعيد بناء هذا الجامع عام 1990 م كما كان في الماضي تقريرا واستعيض عن تابوت الملكين بتابوت بسيط كما أنه قد استعيض عن المنبر بآخر صغير وقيل أنه سيصنع منبر آخر شبيه بالقديم .

تطور بناء المسجد:

• في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه تم بناء قبة الخزنة في مسجد البصرة بأمر منه حفاظا" على المال في المساجد الجامعة بعد سرقتها في مسجد البصرة نفسه ومن ثم بنيت ثلاثة قباب أخرى مماثلة في مساجد القدس و دمشق وحماة

وهذا النمط من البناء نادر هي في الجامع الكبير تقع في فسحة من الجنوب الغربي للمصلى الصيفي الملائق للحرم وتركز على ثمانية أعمدة كلاسيكية وأسطوانية رشيقه تعلوها تيجان كورانية بطبقتين من أوراق الأكانتس الذي يتمايل في انساب حلزوني رقيق وتضم أعمدة القبة بين قواعدها فسقية مثمنة الشكل وصارت تستخدم مؤخرا" ميضاة ثانوية وفي العهد المملوكي نقشت على مراسيم بإبطال بعض المظالم .

• في عهد الخليفة العباسى محمد المهدى ما بين أعوام 785-775هـ/ جرت أعمال ترميم واضحة في المسجد شملت السقف والأعمدة والواجهة الشمالية ، وفي القرن الخامس الهجرى شرعت حماة تأخذ دورا" مهما" في المنطقة وأصبحت مدينة مهمة من مدن بلاد الشام ، وانعكس وضعها الجديد هذا على مسجدها الجامع ، طفت أعمال الإشادة والبناء تظهر تباعا" ففي عام 529 هجري وفي عهد نور الدين الزنكي تم بناء المئذنة الجنوبية وهي المربعة من قبل صلاح الدين أبي جعفر بن أبيه العماري وكان اسم المشرف على البناء أبا سالم يحيى بن سعيد .. ومع عام 552هـ كان زلزال الحموية الكبير المفجعه ومن البديهي أن جامعها الكبير قد تأثر بهذه الزلزلة وسقطت بعد عناصره ، وقام نور الدين الزنكي بدأ" من عام 558هـ ب إعادة بناء حماة ومنها جامع حماة الكبير .

• ومع موت ملك حماة الأيوبي المنصور الثاني محمد تم بناء التربة التي دعيت من بعد التربة المظفرية وذلك في الرواق الغربى ودفن فيها الملك المنصور الثاني محمد ثم دفن إلى جواره ابنه الملك المظفر الثالث محمود ، وفي عام 701هـ تم بناء أعمدة الحرم الثمانية التي تحمل السقف كما تم بناء المنبر الخشبي الثمين الرائع ولقد أمر بالبنائين كليهما زيد الدين كتبغا نائب المملكة الحموية وأما المنبر فقد صنعه علي بن مكي وعبد الله بن أحمد وطعنه أبو بكر بن محمد ونقشه علي بن عثمان كما تدل الكتابات المتناثرة عليه.

• وفي عام 763هـ وفي عهد المقر الأشرف تم بناء الناعورة المحمدية مع قناتها المحمولة على اثنتين وثلاثين قنطرة في موقع باب النهر انقل مياه العاصي إلى الجامع الكبير وعلى وجه القنطرة العاشرة بعد الناعورة توجد كتابة تؤرخ لهذا الحدث المهم .

• وفي عام 823هـ تم بناء الرواق الشرقي من قبل إبراهيم الهاشمي وهذا الرواق يدعى اليوم الحرم السعدي (السعديه)، وفي عام 825هـ تم بناء المئذنة بزخارفها ونقوشها الجميلة، وفي عام 830 هجري صدر أمر شريف بنقل حجارة كل مسجد يخرب إلى الجامع الكبير وهذه الأحجار استخدمت في أعمال بناء الرواق الشمالي من قبل إبراهيم الهاشمي وفي عصر المماليك تم نقش مراسيم على أعمدة قبة الخزنة وفي العهد العثماني دخل المسجد مرحلة إهمال كما ذكرت سجلات المحكمة الشرعية في حماة . وفي عام 1991 م تضافرت الجهود لترميم المسجد لما له من سمة تاريخية حتى أصبح بهذا المظهر اليوم .

المصادر:

- 1- منتديات الإسلام نور
- 2- مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية
- 3- مجلس مدينة حماة
- 4- موقع الدرر الشامية
- 5- موسوعة ويكيبيديا

المصادر: